المجلة المغاربية للمخطوطات
المجلد 18 العدد 01 السنة 2022 ص ص 97-118
ISSN: 2170-1598
EISSN : 2600-6588

صورة الشرق والغرب من خلال رحلة ابن جبير

(578- 581هـ / 1182- 1185م)

Image of the East & the West though Ibn Jubayr'r journey (1182-1185)

فتيحة صحراوي [1]

[1] جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة، الجزائر

f.sahraoui@univ-dbkm.dz

تاريخ الاستلام: 2022/10/12 تاريخ القبول: 2022/12/29 تاريخ النشر: 2022/12/31

Abstract:

The propose of this study is to show the image of east and west through the Travel chronicle of Ibn Jubayr (1182- 1185), He described the céties he visited like: Bagdad, Damascus, Mossol…, he also narrated the history of cities and their monuments like mosques, churches, schools.

The part of Christian Cecily was translated into French. The all work was translated mater in 1852.

The journey of Ibn Jubayr is very important for the searchers Because it contains a lot of information about cities and relationships between Muslim and Christian World

المؤلف المرسل: فتيحة صحراوي

البريد الالكتروني: f.sahraoui@univ-dbkm.dz

this Travel chronicle contains also historical, geographical, military, political and economical information of cities in this time.

Keywords:

The East, Ibn Jubayr's, The West, Release, The trip, Itinerary, Crusades, Cultural image.

الملخص:

تهدف الدراسة إلى تسليط الضوء عن صورة الشرق والغرب من خلال رحلة ابن جبير(578- 581هـ / 1182- 1185م)، وهي من مصنفات هذا الأخير المعنونة ب: "أدب الرحلات، رسالة اعتبار الناسك" المعروفة باسمه (رحلة ابن جبير).

امتازت الرحلة أو المدونة بالعديد من الميزات، فهي مدونة في شكل يوميات، فكانت وصفا شاملا ومفصلا مع إثبات ذلك بالتاريخين الهجري والأعجمي، لمدن كثيرة منها: مدينة بغداد، والموصل، ودمشق،...الخ، ومدن استولى عليها الافرنج مثل: عكا، وصور، وشفلودي...الخ ومعالمها التاريخية والدينية، كالمساجد، والكنائس، المدارس، والمارستانات، والحمامات...الخ. ولقيمة المدونة النفيسة، اهتم بها المستشرقون فترجموا القسم الخاص بصقلية إلى الفرنسية، سنة 1846م، ثم طبعت كاملة سنة 1852م.

رحلة ابن جبير، تعد تسجيلا لكثير من الحقائق والوقائع، ووصفا لبعض الأمكنة والمعالم التاريخية، وتشعبت القضايا التي جمعت بين الشرق الإسلامي ، والغرب المسيحي من خلال رحلته إلى موضوعات عدة، فمنها ما يتسم بالطابع الجغرافي، كذكره لبعض أنواع الريح، والمناخ، وغيرها، ومنها ما يتسم بالطابع

ISSN: 2170-1598
EISSN : 2600-6588

التاريخي الذي يضم محاور متعددة منها: السياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والثقافية...الخ. فماذا عن هاته الصور؟

الكلمات المفتاحية:

الشرق، الغرب، الإفرنج، ابن جبير، الرحلة، مسار الرحلة، الحروب الصليبية، الصورة الثقافية.

تعريف ابن جبير(539- 614هـ / 1144- 1217م):

هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكتاني الأندلسي الشاطبي البلسني[1]، كان اسم جبير من الأسماء المحببة فقد حمله الكثيرون قبله، من رجال أسرته ولذلك شهر به، شغف ابن جبير بعلوم الدين فسمعها من أبيه في شاطبة، وأخذ القرآن عن أبي الحسن بن أبي العيش[2]، غير أن هذا لم يمنع بروزه في علم الحساب والعلوم اللغوية والأدبية، وأظهر مواهب شعرية ونثرية، فكان أديبا بارعا، وشاعرا مجيدا ذائع الصيت [3] ، ما رشحه للعمل كاتبا لحاكم غرناطة وقتذاك أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن أمير الموحدين[4]، كما أنه تنقل في عدة مدن أندلسية وإفريقية.

لابن جبير ثلاث رحلات إلى المشرق، ولكل رحلة سببها، وقد كانت شهرته عن كتابه الذي عرف باسمه (رحلة ابن جبير) والذي نحن بصدد دراسة صورة الشرق والغرب من خلاله.

السبب الأساسي للرحلة الأولى كان أداء فريضة الحج، حيث سجل تفاصيلها، وأوضح المقري دافعها[5]، حيث بدأ الرحلة يوم الاثنين 19 شوال سنة

578هـ الموافق ل3 من شهر جانفي سنة 1182م، وأنهاها يوم الخميس 22 محرم سنة 581هـ الموافق ل25 أفريل سنة 1185م.

أما الرحلة الثانية فكان دافعها ما بلغه من أخبار فتح صلاح الدين الأيوبي[6] لبيت المقدس، فخرج من غرناطة سنة 1589م، وعاد إليها سنة 1191م، حيث تمكن من أداء فريضة الحج، وعند عودته إلى غرناطة، رحل إلى مالطة، وسبته، وفاس.

تأثر ابن جبير لوفاة زوجته عاتكة (أم المجد)، ويبدوا أنه السبب لرحلته الثالثة للحجاز، طالبا للراحة، وكانت آخر رحلاته، حيث مكث بمكة طويلا، ثم ببيت المقدس، ثم مصر والإسكندرية إلى غاية وفاته هناك ليلية الأربعاء 29 شعبان 614هـ/ 1217م[7].

تصانيفه:

الذي لا يعرفه الكثيرون، هو أن ابن جبير، كان أديبا وشاعرا، له نظم سماه "نتيجة وجد الجوائح في تأبين القرين الصالح جزء سماه "نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان".

-التعريف بالكتاب:

من مصنفات ابن جبير "أدب الرحلات، رسالة اعتبار الناسك" المعروفة باسمه "**رحلة ابن جبير**"، وقد امتازت الرحلة أو المدونة بالعديد من المميزات، فهي مدونة في شكل يوميات، فكانت وصفا شاملا ومفصلا مع إثبات ذلك بالتاريخين الهجري والأعجمي، لمدن كثيرة منها: مدينة بغداد، والموصل، ودمشق،...الخ، ومدن استولى عليها الافرنج مثل: عكا، وصور، وشفلودي...الخ. ومعالمها التاريخية والدينية، كالمساجد، والكنائس، المدارس، والمارستانات، والحمامات...الخ. ولقيمة

ISSN: 2170-1598
EISSN : 2600-6588

المدونة النفيسة، اهتم بها المستشرقون فترجموا القسم الخاص بصقلية إلى الفرنسية، سنة 1846م، ثم طبعت كاملة سنة 1852م، ثم أعيد طبعها سنة 1907م، مع ترجمة لمؤلفه (ابن جبير) [8].

رحلة ابن جبير، تعد تسجيلا لكثير من الحقائق والوقائع، ووصفا لبعض الأمكنة والمعالم التاريخية، وتشعبت القضايا التي جمعت بين الشرق الإسلامي ، والغرب المسيحي من خلال رحلته إلى موضوعات عدة، فمنها ما يتسم بالطابع الجغرافي، كذكره لبعض أنواع الريح، والمناخ، وغيرها، ومنها ما يتسم بالطابع التاريخي الذي يضم محاور متعددة منها: السياسية، والعسكرية، والاقتصادية، والثقافية...الخ. فماذا عن هاته الصور؟.

الجانب الجغرافي:

تعيين مسار الرحلة:

كان خروجه يوم الاثنين 19 من شهر شوال سنة 578هـ/ 1181م .من غرناطة إلى سبته ومنها ركب البحر إلى الإسكندرية، ثم توجه إلى مكة عن طريق عيذاب فجدة، أتم مناسك الحج، وزار المدينة والكوفة وبغداد والموصل ودمشق، وركب البحر عائدا إلى غرناطة لتنتهي رحلته يوم الخميس 22 محرم سنة 581هـ/ 1185م.

تبدوا الجوانب الجغرافية عند ابن جبير مرتكزة حول وصف المدن والأمصار وتحديد مواقعها والمسافات التي تفصل بينها وذكر خصائصها وهوائها ومواردها الطبيعية ....الخ، ففي وصفه للمدن يقول ابن جبير: "...هي مدينة واسعة الأرجاء فسيحة الساحة، حفيلة الأسواق..." [9]، ومدينة رأس العين يقول عنها:

"...هذا الاسم من أصدق الصفات وموضوعها بها أشرف الموضوعات وذلك أن الله فجر أرضها عيون وأجراها ماءا معينا فتقسمت مذانب وانسابت جداول تتبسط في مروج خضر..." [10].

ويقول عن دمشق : "...جنة المشرق...وهي خاتمة بلاد المسلمين التي استقرينا بها وعروس المدن التي اجتبيناها، وقد تحلت بأزاهير الرياحين وتحلت في حلل سندسية من البساتين..." [11].

إن أول ما يلفت النظر في الرحلة هو زمنها، فانطلاقة ابن جبير، كانت في غضون 1183م، في هذا التاريخ كانت أصداء الحملة الصليبية الثانية(1147-1149) ما تزال عالقة في الأذهان، وكان الصليبيون يختلون بلاد الشام أيام السلطان صلاح الدين الأيوبي، الذي كان هذا الأخير يتخذ ترتيباته استعدادا لطردهم من هذه البلاد، كما أن الاستعدادات للحملة الصليبية الثالثة (1189-1192م)، كانت جارية وتخلف أصداء، ولا أحد ينكر أن المواجهات العسكرية كانت قاسية، ومتعددة، وأن الجانب البارز في العلاقات في ذلك العصر هو الذي كانت تشهده ساحة القتال في معرة إثبات الذات، فما هي الصور الأخرى، السياسية، والاجتماعية، والدينية، والثقافية؟

أول صورة تعطى للشرق، والغرب، هي الصورة السياسية والاجتماعية والدينية، وقد حملت المدونة لخبار ومعلومات مهمة عن هذه الجوانب، فكيف كانت هاته الصور من وجهة نظر المؤلف؟

من وجهة نظر ابن جبير، فالعلاقات بين الطرفين كانت تتأرجح بين التسامح والريبة؟ فالعلاقات السلمية والحضارية بين الإفرنج والمسلمين والتي كانت تنعم بها بلاد الشام قد انعكست إيجابا على العلاقات الإسلامية- المسيحية

ISSN: 2170-1598
EISSN : 2600-6588

في جبل لبنان، ومختلف المناطق اللبنانية- الشامية، وابن جبير يحدثنا عن أمر عجيب فيقول: "...ومن العجب أن النصارى في جبل لبنان إذا رأوا به بعض المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوت وأحسنوا إليهم: ويقولون: هؤلاء ممن انقطع إلى الله عز وجل فتجب مشاركتهم... وإذا كانت معاملة النصارى لضد ملتهم هذه المعاملة فما ضنك بالمسلمين بعضهم مع بعض"[12]، وحتى عند توتر العلاقات بين الكبار من المماليك الإفرنجية والإسلامية (أي بين الساسة)، فتبقى العلاقات يسودها الاتفاق والاعتدال.

وعن العلاقات الجيدة بين المسلمين والإفرنج بمنطقة هونين، وبانياس قال ابن جبير: " وعمالة تلك البطحاء بين الإفرنج والمسلمين لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة، فهم يتشاطرون الغلة على استواء، ومواشيهم مختلطة، ولا حيف يجري بينهم فيها"[13]، ولما تحدث ابن جبير عن تبنين قال: "سكانها كلها مسلمون وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه...وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم في غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضا ومساكنهم بأيديهم، وجميع أحوالهم متروكة لهم"[14].

وقد تعجب من تحاسد المسلمين فيما بينهم، بسبب رفاهية البعض، وفقر البعض الآخر، فقال: " ...هذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكي الصنف الإسلامي جور صنفه المالك له، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الإفرنج ويأنس بعدله..."[15].

والأمر الملاحظ، أن التسامح الديني بلغ في بعض الأحيان حدا لافتا للنظر، حيث أن المسلمين والمسحيين، كانوا يقيمون الصلاة في مسجد ومكان واحد، وقد أشار ابن جبير، عندما تحدث عن مدينة عكا، حيث يوجد في شرقيها العين المعروفة بعين البقر يقول: "...وعليها مسجد بقي محرابه على حاله، ووضع الإفرنج في شرقيه محرابا لهم، فالمسلم والكافر يجتمعان: يستقبل هذا مصلاه، وهذا مصلاه، وهو بأيدي النصارى معظم محفوظ وأبقى الله فيه موضع الصلاة للمسلمين..." [16]، كما بقيت بعض المساجد بأيدي المسلمين منفردين بالصلاة فيها، وهذا ما أشار إليه ابن جبير: "...وكانت راحتنا مدة مقامنا بصور، بمسجد بقي بأيدي المسلمين، ولهم فيها مساجد أخرى..." [17].

ومما ذكره ابن جبير بعد معركة خاضها صلاح الدين الأيوبي، ضد الإفرنج في نابلس قوله: "...وخرجنا نحن إلى بلاد الإفرنج وسبيهم يدخل بلاد المسلمين، وناهيك في هذا الاعتدال في السياسة..." [18]، وعند رحيل ابن جبير من داريا إلى نابلس وجد شجرة بلوط كبيرة يقول: "فسألنا عن ذلك، فقيل لنا هي حد بين الأمن والخوف في هذه الطريق لحرامية الإفرنج – وهم الحواسة والقطاع- من أخذوه وراءها إلى جهة بلاد المسلمين ولو بباع أو شبر أسر، ومن أخذ دونها إلى جهة بلاد الإفرنج بقدر ذلك أطلق سبيله، لهم في ذلك عهد يوفون به وهو من أظرف الارتباطات الإفرنجية وأغربها" [19].

وانتقل جو التسامح إلى المشاركة في الاحتفالات التي كان يصادف الناس وقتها في السفن في البحر، ويمكن الإشارة هنا إلى أن ابن جبير، في طريق عودته إلى بلاده، بعد أداء فريضة الحج، وهو في مدينة صور ينتظر مركبا في اتجاه المغرب الإسلامي، لكن بعد وصول المركب وجده صغيرا، غير قادر على مواجهة أخطار

ISSN: 2170-1598
EISSN : 2600-6588

البحر في نظره؟، فذهب إلى عكا أين وجد مركبه المفضل، وكان قاصدا صقلية، أين كان عدد المسلمين الذين أبحروا معه قليل قدرهم بحوالي خمسون(50) حاج، مع عدد كبير، على نفس المركب من الحجاج المسحيين لبيت المقدس، قدرهم بحوالي مائتي(200)حاج، يقول ابن جبير "...في يوم السبت الثامن والعشرين لجمادى المذكور والسادس لأكتوبر، صعدنا إلى المركب... وحاز المسلمون مواضعه بانفراد...وصعد من النصارى من المعروفين بالبلغاريين وهم حجاج بيت المقدس..."[20].

وهكذا فان حجاج المغربين، الإسلامي والمسيحي، أبحروا معا على متن سفينة واحدة، حقا أنهم لم يكونوا على اختلاط، غير أنها تبقى ظاهرة لافتة للنظر، أن أتباع ديانتين سماويتين يسلمون أمرهم إلى ذات الإله الواحد، على متن سفينة في رحلة غير مؤمنة العواقب بالنظر إلى أهوال البحر، هذا في الوقت الذي القتال يدور باسم هاتين الديانتين على بعد مقربة من مكان إقلاع السفينة.

أعود إلى ذكر الاحتفالات يقول ابن جبير: "...في ليلة الخميس 24 رجب – وهو أول من نوفمبر العجمي ...كان للنصارى عيد مذكور عندهم...احتفلوا له في أسراج الشمع، وكاد لا يخلوا أحد منهم....من شمعة في يده، وتقدم قسيسهم للصلاة في المركب بهم...والمركب كله أعلاه وأسفله سرجا متقدة..."[21]، وقد نقل لنا ابن جبير ،هذا دون مغالاة أو تعصب من هذه الاحتفالات، سواء منه، أو من أحد المسافرين المسلمين معه.

هذه العلاقات التي كان يسودها الود والتسامح، كانت لا تخلوا أيضا من الحقد والخديعة، من بعض المتعصبين؟ وهنا يذكر لنا ابن جبير، معاقبة أسرى

الروم بالإسكندرية، لقيامهم بحرق مراكب الحجاج، وأطعمة كثيرة كانت معدة لميرة مكة والمدينة [22]، وكانت هناك بعض التوترات، لا سيما في فترة التوتر السياسي والصراع العسكري، حيث كان يضطهد المسلمون من قبل الإفرنج، فيسمعون منهم السباب والشتائم ضد نبيهم، ويتعرضون للمشقات والأهوال والذلة يقول ابن جبير: "...ومن الفجائع التي يعانيها من حل بلادهم أسر المسلمين، يرسفون في القيود ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد، والأسيرات المسلمات كذلك في أسوقهن خلاخيل الحديد، فتنفطر لهم الأفئدة..." [23].

وعن العلاقات الودية أيضا، بين الشرق الإسلامي، والغرب المسيحي، التي صادفت ابن جبير في صقلية التي كان ملكها يحاول التقرب من المسلمين والتشبه بخلفائهم (وهو الملك غيام)، هذا الأخير كان يتقن اللغة العربية، وحمل لقب "المستعز بالله"، وكانت علامة أبيه "الحمد لله حق حمده"، وقد كان له ذكر جميل عند ابن جبير ، في حادثة وشك غرق السفينة الجنوية (الإيطالية)، التي كان على متنها الحجاج المسلمين والبلغاريين، حيث خرج هذا الملك بنفسه، وأشرف على عملية الإغاثة، بل ولم يبخل بتقديم مساعداته المادية لإنقاذ الحجاج المسلمين، بل واعتبر ابن جبير وجود هذا الملك في مسينا رحمة للمسلمين [24].

غير أن ابن جبير، يذكر لنا أنه خلال فترة حكم هذا الملك، رأى بعض التناقض في السياسة الصقلية إزاء المسلمين، فقد تأرجحت معاملتهم بين التسامح والريبة، لا سيما وأنه وجد فئة من المسلمين تنصرت ظاهريا وبقيت على الإسلام سرا، تؤدي الصلاة الإسلامية بعيدا عن الأنظار، وكانت صلاة الجمعة محظورة عليهم، ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للخليفة العباسي يقول: "...معمورة بعبد الصلبان...وليس في مسينة هذه من المسلمين إلا نفر من يسير من

ISSN: 2170-1598
EISSN : 2600-6588

ذوي المهن، ولذلك ما يستوحش بها المسلم الغريب..." [25].

وعن الملك غليام قال أيضا: "...وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان المجابيب وكلهم أو أكثرهم كاتم إيمانه، متمسك بشريعة الإسلام... وهو كثير الثقة بالمسلمين... ومن عجيب المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية... وأما جواريه وخطاياه في قصره فمسلمات كلهن..." [26].

وعن وضع المسلمين في العاصمة بالرمو قال: "...وللمسلمين بهذه المدينة رسم باقي من الإيمان، يعمرون أكثر مساجدهم، ويقيمون الصلاة بأذان مسموع، لهم أرباض قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى... ولا امن لهم في أموالهم ولا في حريمهم ولا أبنائهم، تلاقاهم الله بصنع جميل منه..." [27].

تنصر كثير من المسلمين بالقوة، ومن بين هؤلاء ابن زرعة الذي حفظ الإنجيل وأصبح في جملة القسيس وحول مسجده إلى كنيسة، قيل لابن جبير أنه مازال على دين الإسلام سرا[28]، أما أبو القاسم بن محمود المدعو (ابن حجر)، فألزمه بالبقاء في داره بتهمة الاتصال ومراسلة الموحدين، وبعد لقائه بابن جبير أخبره بأنه كان يود أن يباع هو وأهله علا هذا كان يخلصه ما هو فيه ويؤدي به إلى الحصول في بلاد المسلمين[29]، كل هذا أدى ببعض المسلمين الطلب من التجار المسلمين أن يتزوجوا من بناتهم وان يأخذوهن معهم حفاظا على إسلامهن ودينهن.

هذا عن صورة العلاقات الاجتماعية، والدينية، والسياسية، فما هي الصورة الاقتصادية بينهما؟

إن موضوع العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، متعدد الجوانب والأطراف شائك في ذات الوقت،[30] لأن العلاقات

السياسية والعسكرية بينهما تميزت خلال هذه الفترة بالتوتر، والذي نجد فيما اصطلح على تسميته بالحروب الصليبية.

ذكر لنا ابن جبير معلومات عن العلاقات الاقتصادية بين الشرق الإسلامي والمتمثل في مصر وبلاد الشام، والغرب المسيحي والمتمثل في الجمهوريات الايطالية خاصة، وفي هذا يقول: "...وألقينا مركبا للروم الجنويين مقلعا إلى الإسكندرية... فسهل الله علينا الركوب فيه..." [31].

أيضا لقي ابن جبير مراكب أخرى أثناء رحلته وهذا إن دل على شيء إنما يدل على نشاط الحركة التجارية ورواجها[32].

كان لأهل الذمة ببلاد المشرق جزية تدفع للخزينة، فكانت موردا هاما لها، وقد خصص منها صلاح الدين مبلغ للحجاج المغاربة وفي هذا يقول: "...وليس له منها[33] سوى ثلاثة أثمانها والخمسة الأثمان مضافة للوجوه المذكورة (الحجاج المغاربة)" [34].

إن العلاقات السياسية والعسكرية غالبا ما تلقي بضلالها على الحياة الاقتصادية، وهذه القاعدة شاذة في العلاقات بين المسلمين والمسيحيين إن صح التعبير، ففي هذه الفترة تميزت العلاقات الاقتصادية بينهما في أغلب الحيان بالهدوء والود من وجهة نظر ابن جبير فيقول: "...ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى ...واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع. واختلاف المسلمين من دمشق إلى عكة كذلك..." [35].

ونورد مشاهدات أخرى حول هذه العلاقات فبعد أن أشار ابن جبير لخروج صلاح الدين لمنازلة حصن الكرك الإفرنجي، لأنه المعترض في طريق الحجاز،

ISSN: 2170-1598
EISSN : 2600-6588

والمانع لسبيل المسلمين على البر قال: "... واختلاف القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع...وتجار النصارى أيضا لا يمنع أحد منهم ولا يعترض...وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم... وتجار النصارى أيضا يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشتغلون في حربهم والناس في عافية، والدنيا لمن غلب. هذه سيرة أهل هذه البلد في حربهم ... ولا تعترض الرعايا ولا التجار، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلما أو حربا..." [36].

وقد أوجد هذه الحركة التجارية فئة من التجار، وذكر ابن جبير اثنين منهما كان يعملان على فك أسرى المسلمين المغاربة وهما: نصر ابن قوام، وأبي الدر ياقوت يقول: "...وقيض الله لهم(الأسرى) بدمشق رجلين من مياسر التجار وكبرائهم وأغنيائهم المغمسين في الثراء أحدهما يعرف بنصر ابن قوام، والثاني أبي الدر ياقوت مولى العاطفي. وتجارتهما بهذا الساحل الإفرنجي، ولا ذكر فيه لسواهما الأمناء من المقارضين، فالقوافل صادرة وواردة ببضائعها، وشأنهما في الغنى كبير، وقدرهما عند أراء المسلمين والإفرنجيين خطير..." [37].

ووصف ميناء عكا وتجارتها قائلا: "...هي قاعدة مدن الإفرنج بالشام ومحط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة...مجتمع السفن والرفاق، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الأفاق... [38]

هذا عن الجانب الاقتصادي، فما هي صور العلاقات العسكرية بين الطرفين من خلال المدونة؟

العلاقات العسكرية بين الطرفين كانت متوترة، وكما سبق وان أشرنا إليه فقد خرج ابن جبير للحج في مرحلة الاستعدادات للحرب الصليبية الثالثة، والصورة التي وقفنا عندها من خلال المدونة، أو التي نقلها لنا تتمثل في وصفه للحصون والقلاع، وهذا إن دل يدل على أن الطرفين كان في حرب، فلا بد أن يؤمن ويحصن الآخر نفسه من العدو.

وعند اجتياز ابن جبير من مصر إلى المدينة أشار إلى وجود حصن للإفرنج فقال: "...وهي السبيل التي من مصر...إلى المدينة المقدسة، وهي مسافة قريبة يكون البحر منها يمينا وجبل الطور المعظم يسارا، لكن للإفرنج بمقربة منها حصن مندوب يمنع الناس من سلوكه والله ينصر دينه..." [39].

كما أشار إلى العمران وبناؤه العتيق الحصين في بلاد الشام ومنه ذكره مدينة حمص فيقول: "...وأسوار هذه المدينة غاية في العتاقة والوثاقة، مرصوص بناؤها بالحجارة الصم السود...وأهل هذه البلدة موصفون بالنجدة والتمرس بالعدو لمجاورتهم إياه، وبعدهم في ذلك أهل حلب..." [40].

أما عن مدن صقلية التي هي للإفرنج فيقول عن شفلودي[41]: "...هي مدينة ساحلية....فيها قلعة لم ير أمنع منها اتخذوها عدة لأسطول يفجؤهم من جهة البحر من جهة المسلمين نصرهما الله..."وعن ثرمة هي الأخرى قال:...هي أحسن وضعا من التي تقدم ذكرها (شفلودي) وهي حصينة... ولها قلعة سامية منيعة..." [42].

وأتى ذكره على مدينة صور التي تمنى تدميرها لأنها بيد الإفرنج فقال:

"...مدينة يضرب بها المثل في الحصانة ...قد أعدها الإفرنج مفزعا لحادثة زمامهم، وجعلوها مثابة لأمانهم ...وأما حصانتها ومنعاتها فأجب ما يحدث به، وذلك أنها

ISSN: 2170-1598
EISSN : 2600-6588

راجعة بين بابين أحدهما في البر، والأخر في البحر، ...لها سلسلة عظيمة تمنع اعتراضها الداخل والخارج...[43].

أما عن الثغور فقد كانت مدينة بانياس ثغرا للمسلمين يقول: "...هذه المدينة ثغر بلاد المسلمين، وهي صغيرة ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر...كانت بيد الإفرنج فاسترجعها نور الدين رحمه الله...[44].

على عكس المجالات الأخرى، لم ترد في المدونة معلومات كثيرة في المجال الثقافي، إلا ما أشار له ابن جبير من معلومات متناثرة هنا وهناك.

ونلاحظ من خلال ما نقله لنا التأثير في اللغة، فقد كانت العربية لغة متداولة في المجتمع المسيحي، وأشرنا إلى ذلك سابقا عن الملك غليام الذي كان يتقن نطق وكتابة اللغة العربية، وكذلك بعض موظفو الديوان يقول ابن جبير: "...وحملنا إلى الديوان، وهو خان معد لنزول القافلة وأمام بابه مصاطب مفروشة فيها كاتب الديوان من النصارى بمحابر الأبنوس المذهبة الحلي، وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها..."[45].

لم يمس التأثير الثقافي اللغة فقط بل شمل اللباس أيضا، فكان زي النساء النصرانيات يشبه أو يكاد يكون نساء المسلمين، كما كن فصيحات الألسن، وهذا ما شاهده ابن جبير يوم خروجهن للاحتفال بيوم الميلاد في كنيسة الأنطاكي[46].

كما تأثر الغرب المسيحي بالعمارة الإسلامية وهذا ما شاهده أيضا ابن جبير عند زيارته مدينة ثرمة، وهي جزيرة في صقلية، بها قصور وكنائس معدة للمرضى قال عنها: "...وأبصرنا للنصارى في هذه الطريق كنائس معدة لمرضى

النصارى ولهم في مدنهم مثل ذلك على صفة مارستانات المسلمين، وأبصرنا لهم بعكة وبصور مثل ذلك، فعجبنا من اعتنائهم بهذا القدر..."

نستخلص مما ورد ذكره جملة من النتائج نوردها فيما يلي:

جاءت المدونة، حاملة لمعلومات مهمة لفترة العصور الوسطى، فكانت صور مختلفة جغرافية، وتاريخية، مشعبة في مجال التاريخ إلى سياسية، ودينية، واجتماعية، واقتصادية، وثقافية، عن الشرق الإسلامي، والغرب المسيحي.

وجدنا من خلال المدونة، أنه كان هناك تسامح وتعايش، بين الشرق الإسلامي، والغرب المسيحي، والاتفاق والاعتدال بينهم في جميع الأحوال، حتى ولو كان أهل الحرب مشتغلون في حربهم، لأن ابن جبير، خرج للحج في غضون الحرب الصليبية الثالثة، غير أن هذا لم يمنع مشاهد التوتر، والفتن، وربما كان ذلك من بعض المعصبين.

ما يمكن ملاحظته في المجال الاقتصادي، هو احتكار سفن البحرية المسيحية، للبحر الأبيض المتوسط، وابن جبير لم يشر في مدونته، في سواء ذهابه، أو إيابا لأداء فريضة الحج، إلى أي مركب من الشرق الإسلامي، فرأيت في هذا أن أقول هل كان اهتمام ملوك الشرق الإسلامي، بالمجال العسكري، على حساب المجال الاقتصادي؟

من يقرأ الرحلة يخل له أنها أشبه بالقصص، غير أن القارئ المتمعن لها يجد فيها من المعلومات عن العلاقات بين الشرق الإسلامي، والغرب المسيحي، السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والعسكرية، وغيرها، فهي كنز لا غنى للباحث في هذه المجالات الاستغناء عنها.

ISSN: 2170-1598
EISSN : 2600-6588

الهوامش:

[1] - ينظر: أحمد أبو سعيد: **أدب الرحلات**، دار الشرق الجديد، بيروت، لبنان، 1961، ص 108.

[2] - ينظر: ابن جبير: **رسالة اعتبار الناسك في ذكر الأثار الكريمة والمناسك المعروفة ب: حلة ابن جبير**، ط جديدة ومنقحة، دار ومكتبة الهلال، بيروت،1461هـ/ 2002، ص5.

[3] - شهاب الدين ابن الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه: محمد عبد الله غنان، ط 4، مج 2، مكتبة الخانجي، القاهرة،2001، ص231. أيضا: عواطف محمد يوسف نواب، **الرحلات المغربية والأندلسية، مصدر من مصادر تاريخ الحجاز، دراسة تحليلة مقارنة**، مكتبة ملك فهد الوطنية، الرياض، 1996، ص99..

[4] - هو عثمان بن عبد المؤمن (533- 571هـ/ 1138- 1175م)، كني بأبي سعيد، وكان يلقب بالسيد، ومن الألقاب التي اطلقت عليه أيضا، ملك غرناطة، وحاكم غرناطة، قدم عثمان دورا هاما في تثبيت الدولة الموحدية، في بلاد المغرب والأندلس، كان قائدا عسكريا وإداريا، إضافة إلى حبه للعلم والمعرفة، حيث قرب إليه خيرة علماء المغرب والأندلس، تعد فترة حكم الأمير أبو سعيد، لبلاد المغرب والأندلس من العهود الحافلة بالانجازات السياسية، والحضارية، والاقتصادية، والعلمية، وهي امتداد طبيعي لتلك النهضة التي شهدها عهد أبيه عبد المؤمن بن علي وأولاده بعده. لتفاصيل أكثر حول الأمير عثمان بن عبد المؤمن. ينظر:

- السلاوي أبو العباس احمد بن خالد الناصري : **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**،ج2، تعليق: جعفر الناصر، محمد الناصري، دار الكتاب ، الدار البيضاء، المغرب الإقصى، 1954 م ، ص 109.
- لسان الدين، محمد بن عبد الله(ت 766 هـ): **اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرانية**، المطبعة السلفية،القاهرة، 1928م، ص 12.
- أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي(ت 712 هـ): **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق: محمد إبراهيم كتاني، وآخرون، ط1، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 1985م، ص 94.

- علي عطية شرقي: " الأمير عثمان عثمان بن عبد المؤمن (حاكم غرناطة) دراسة في سيرته الذاتية وأثره العسكري والإداري في بلاد المغرب والأندلس، **مجلة مداد الآداب**، عدد12، كلية الآداب، الجامعة العراقية، العراق، 2016، ص- ص 546- 559.

[5]- كان دافعه لهذه الرحلة، هو زيارة البقاع المقدسة، بالإضافة إلى إطلاعه واستكشافه لبعض الأماكن، وقد ذكر بعضهم أن سبب رحلته إلى البقاع المقدسة، مفاده أن صاحب مدينة غرناطة استدعاه يوما، ليؤلف له كتابا، وهو في مجلس شرابه، وحدث أن دفع إليه الأمير كأسا، فأظهر ابن جبير الانقباض، وقال: يا سيدي ما شربتها قط، فقال: والله لتشربن منها سبعا، فشرب سبع كؤوس، فملأ له السيد الكأس من الدنانير سبع مرات، وصب ذلك في حجره، فحمله إلى منزله وأنذر على أن يجعل كفارته، حج بيت الله. ينظر: أحمد بن محمد المقري التلمساني: **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق: راجان عباس، ج1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1988م، ص 385.

[6]- هو الملك الناصر، أبو المظفر صلاح الدين، يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان بن يعقوب الدُويني التكريتي(532- 589هـ/ 1138- 1193م)،المشهور، باسم صلاح الدين الأيوبي، وهو قائد عسكري محنك، أسس الدولة الأيوبية التي وحدت مصر، والشام، والحجاز، وتهامة، واليمن، في ظل الراية العباسية، بعد أن قضى على الخلافة الفاطمية ، قاد صلاح الدين الأيوبي، عدّة حملات ومعارك ضد الفرنجة، وغيرهم من الصليبيين الأوروبيين، في سبيل استعادة الأراضي المقدسة، التي كان الصليبيون قد استولوا عليها، وقد تمكن في نهاية المطاف من استعادة معظم أراضي فلسطين ولبنان بما فيها مدينة القدس، بعد أن هزم جيش بيت المقدس هزيمة منكرة في معركة حطين. لتفاصيل أكثر ينظر: - عبد الرحمن عزام: **صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني**، ترجمة: قاسم عبده قاسم، دار بلومزبري، مؤسسة قطر للنشر، الدوحة، قطر، 2009، ص 53 وما يليها.

[7]- ينظر: ابن جبير، مصدر سابق، ص6. أيضا: نفيس أحمد: **جهود المسلمين في الجغرافية**، ترجمة: فتحي عثمان، مؤسسة الصحافة العربية(ناشرون)، جمهورية مصر العربية، 2020، ص 79.

[8]- ينظر: ابن جبير، مصدر سابق، ص 176.

[9]- نفسه، ص 159.

[10]- نفسه، ص 210

[11]- نفسه، ص 234.

[12]- نفسه، ص 247.

[13]- نفسه، ص، ص247، 248.

[14]- نفسه، ص 248.

[15]- نفسه، ص، ص 251،252.

ISSN: 2170-1598
EISSN : 2600-6588

[16]- نفسه، ص 246.

[17]- نفسه، ص 247.

[18]- نفسه، ص 246.

[19]- نفسه، ص 255.

[20]- نفسه، ص 258.

[21]- نفسه، ص 31.

[22]- نفسه، ص 252، يقول ابن جبير أنه كان باستطاعة أغنياء المسلمين فك الأسرى مقابل مبالغ مالية طائلة، وهذا ما كان يقوم به رجلان من أغنياء دمشق، وهما نصر بن قوام وأبي الدرياقوت.

[23]- يقول ابن جبير: "...من جملة صنع الله عز وجل لنا، ولطفه بنا ...كون هذا الملك الرومي حاضر فيها، ولولا ذلك لانتهت جميع ما في المركب انتهابا..."، مصدر سابق، ص 265.

[24]- نفسه، ص 266.

[25]- نفسه، ص 267.

[26]- نفسه، ص 172.

[27]- نفسه، ص 297.

[28]- نفسه، ص 280.

[29]- نفسه، ص 8.

[30]- لتفاصيل أكثر حول موضوع العلاقات الاقتصادية بين الشرق الإسلامي، والغرب المسيحي ينظر: عادل زيتون: **العلاقات الإقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى**، ط1، دار دمشق للطباعة والنشر، سوريا، 1400هـ/ 1980م، ص 27 وما يليها.

[31]- ينظر: ابن جبير، مصدر سابق، ص9.

[32]- إضافة إلى الجزية التي كان يدفعها أهل الذمة (اليهود والنصارى)،لخزينة المسلمين، كانت هناك أيضا الأوقاف الخيرية المحبسة، وكذلك الزكاة التي تدخل إلى بيت المسلمين.

[33]- ينظر: ابن جبير، مصدر سابق، ص15.

[34]- نفسه، ص، ص 234، 235.

[35]- نفسه، ص 246.

[36]- نفسه، ص 253.

[37]- نفسه، ص 45.

[38]- نفسه، ص،ص 44، 45.

[39]- نفسه، ص 208.

[40]- نفسه، ص 270

[41]- هي مدينة من مدن صقيلية، كثيرة الخصب، واسعة المرافق، منتظمة الأشجار والأعناب، وغيرها، مرتبة الأسواق، وفيها جبل، عليه قلعة لم يرى أمنع منها. حولها ينظر: محمد بن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، 1974، ص 74.

[42]- نفسه، ص 250.

[43]- نفسه، ص 246.

[44]- نفسه، ص 247.

[45]- يقول ابن جبير: "...وزي النصرانيات في هذه المدينة زي نساء المسلمين: فصيحات الألسن، ملتحفات، منتقبات، خرجن في هذه العيد المذكورة وقد لبسن ثياب الحرير المذهب، والتحفن اللحف الرائقة، وانتقبن بالنقب الملونة، وانتعلن الأخفاف المذهبة، وزرن لكنائسهن أو كنسهن حاملات جميع زينة نساء المسلمين من التحلي والتخضب والتعطر...". ينظر: نفسه، ص 274.

ISSN: 2170-1598
EISSN : 2600-6588

- قائمة المصادر والمراجع:

- أبو العباس أحمد بن محمد المراكشي(ت 712 هـ): **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق: محمد إبراهيم كتاني، وآخرون، ط1، الدار البيضاء، المغرب الأقصى، 1985م.
- أحمد بن محمد المقري التلمساني: **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، ج1، تحقيق: راجان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، 1988م.
- ابن جبير: **رسالة اعتبار الناسك في ذكر الأثار الكريمة والمناسك المعروفة ب: حلة ابن جبير**، ط جديدة ومنقحة، دار ومكتبة الهلال، بيروت،1461هـ/ 2002
- شهاب الدين ابن الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه، محمد عبد الله غنان، ط 4، مج 2، مكتبة الخانجي، القاهرة،
- محمد بن عبد المنعم الحميري: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، 1974.
- السلاوي أبو العباس احمد بن خالد الناصري : **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**،ج2، تعليق: جعفر الناصر، محمد الناصري، دار الكتاب ، الدار البيضاء، المغرب الإقصى، 1954 م .
- لسان الدين، محمد بن عبد الله(ت 766 هـ): **اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرانية**، المطبعة السلفية،القاهرة، 1928م.
- عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية، مصدر من مصادر تاريخ الحجاز، دراسة تحليلة مقارنة، مكتبة ملك فهد الوطنية، الرياض، .1996.
- أحمد أبو سعيد: **أدب الرحلات**، دار الشرق الجديد، بيروت، لبنان، 1961،

- عبد الرحمن عزام: **صلاح الدين وإعادة إحياء المذهب السني**، ترجمة: قاسم عبده قاسم، دار بلومزبري، مؤسسة قطر للنشر، الدوحة، قطر، 2009.
- عادل زيتون: **العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى**، ط1، دار دمشق للطباعة والنشر، سوريا، 1400هـ/ 1980م،
- نفيس أحمد: **جهود المسلمين في الجغرافية**، ترجمة: فتحي عثمان، مؤسسة الصحافة العربية(ناشرون)، جمهورية مصر العربية، 2020.
- علي عطية شرقي: " الأمير عثمان عثمان بن عبد المؤمن (حاكم غرناطة) دراسة في سيرته الذاتية وأثره العسكري والإداري في بلاد المغرب والأندلس، **مجلة مداد الآداب**، عدد12، كلية الآداب، الجامعة العراقية، العراق، 2016، ص- ص 546- 559.